الفصل التاسع
من تكون؟!

صمت أيمن وشرد ببصره في النظر إلى الأرض، وتحركت شفتيه ببعض الكلمات الخافتة المترددة، ولكنه ما لبث أن ابتلعها، ولم ينطق منها شيئاً.

وتقدم " أيمن " إلى الداخل، وارتمى على أقرب مقعدٍ، ووضع رأسه بين كفيه.. وتساءل خالدٌ في لهفةٍ:

-ماذا حدث؟.. تكلم فالقلق يعتصر فؤاد كل منا.

وتساءل الأب في صوتٍ متحشرج:

-هل أصاب "طارق" مكروه؟

وبذل "أيمن" جهداً خارقاً؛ ليتماسك قبل أن يهتف قائلاً:

-لقد سقطت أحد الأبينة عليه، وبترت ذراعه.. ودخل في غيبوبةٍ، لم يخرج منها حتى الآن.

وصرخت الأم، وأمسك خالد بذراع أيمن يهزه في عنفٍ قائلاً:

-أنت تمزح.. أليس كذلك؟.. وأتبع في أسى:

-يكفينا ما قدمنا من تضحية.. تكفينا زهرة.

وهتف الأب بصوتٍ مبحوح:

-متى حدث ذلك؟

-منذ اليوم الأول للغارة.

-أين هو الآن؟

-يرقد في مستشفى "الجلاء التخصصي".

وتمتمت الأم وسط سيول من البكاء:

-يارب رحمتك.. يارب ليس لنا إلا هو.

وأحس الأب أن الأرض تميد به وهتف متسائلاً:

-متى نستطيع زيارته؟

-وتلعثم " أيمن " وبدا أنه يحاول أن يخفي شيئاً ما.. وحاول جاهداً السيطرة على أعصابه، ثم قال متصنعاً الصدق:

-كما تريدون.. في أي وقت يحلو لكم.

وتساءل الوالد في شكٍ:

-هل تخفي شيئاً ما؟

صمت أيمن، فأردف الأب:

-هات ما عندك.. فليس هناك أسوأ مما قلته منذ دقائق.

تلعثم "أيمن"، ثم قال والتردد يلوح على شفتيه:

-في الحقيقة لقد مُنعت عنه الزيارة، فحالته سيئة للغاية.

وصكت الأم وجهها وهي تهتفُ:

-وامصيبتاه.

وقال الأب في أسى:

-احمدي الله واسترجعي.. عسى أن يهون علينا ما نحن فيه.

-لقد كان ذراعنا في هذه الحياة.. وفي آنٍ واحدٍ، قطعت ذراعنا، وبترت ذراعه.

وترجل أيمن وصافح الأب، والأسى يستوطن ملامحه قائلاً:

-آسف على ما حملته من أخبار.

-هذا قدر الله يا بنى.. سأذهب إلى المشفى غداً، لأرى ماذا يمكن أن نفعل.

وهبط " أيمن "ا لدرج، وسار في ممر الحديقة الخارجي مبتعداً إلى الشارع.

وخيّم على الأسرة جو من الصمتِ.. ودفن الأب رأسه في سجادته داعياً الله أن يرفق بولده.. وعصبت الأم رأسها بمنديل، وجلست تبكي، وتحدث نفسها، وتبكي الراحلين واحداً واحداً.. وتدعو الله أن يرفق بطارق، وألا يحدث له إلا خيراً.. وأن يرده إليها سالماً معافىً.

وجاء الأب قائلاً:

-اهدئي يا أم طارق.. واطلبي من الله أن يشفيه بدلاً من هذا البكاء والنحيب.

انزوى "خالدٌ" في ركنٍ وحده، ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ منذ أن غادر " أيمن " وكأن على رأسه الطير، وامتلأت عيناه بنظرة ألمٍ ممزوجة بقوةٍ.. ولاحظ الأب حاله، وخشي أن يصيبه مكروه هو الآخر، وركز بصره معه حتى أذن لصلاة المغرب.

وهبط الظلام، وخفت الضوء الذي ينبعث من نافذة الغرفة.. وبهتت معالم الأشياء حولهم، وأسدل الظلام ستاره، ولم يهتم أحدٌ بإنارة الغرفة، فالظلمة قد استوطنت نفوسهم قبل أن يحل الظلام في بيتهم.

وبعد وقتٍ ليس بالقصير، قام الأبُ متوكأ على عصاه؛ ليضيئ الغرفة التي يجلسون بها، وتفاجأ بعدم وجود خالد، وعقد حاجبيه مندهشاً وتساءل في فزعٍ:

-أين ذهب خالدٌ؟!

ولم تجب الأم سبقتها عبراتها، واندفع الأب خارجاً من الغرفةِ؛ ليبحث عنه في أرجاء المنزل.

وعلى مائدة الطعام بردهة البيت وجد ورقةً صغيرةً خُط عليها جملة قصيرة.. قصيرة جداً، ولكنها كانت كافية؛ لأن تطفئ آخر شعاع أمل في نفس تلك الأسرة المنكوبة.

****

-أفشيتَ أسرار المعسكر.. إنت تمزح أليس كذلك؟

-على العكس تماماً.. للأسف أتحدث بكل جدية، ولم أفش أسرار المعسكر فقط، بل عرضتُ حياة الآخرين للخطر.. ولم يعد بينهم وبين الموت سوى خطوة واحدة، إن لم يكونوا قد ماتوا بالفعل..

تنهد بحرقةٍ ثم أردف قائلاً:

-لقد وُضعتُ في اختبار عسير، وبين نارين فاخترتُ أقلهم حريقاً لنفسي، وأخفهم لهباً على روحي.. وبالأخير اكتشفتُ أن النيران تندلع من صدري أنا وتتأجج بين جوانحي.

-لم أعد أفهم شيئاً.

-في الليلة التي أتيتَ بها أنت إلى هنا متطوعاً للعمل في المعسكر، جاءت لزيارتنا ضيفة هامة للغاية؛ لتطئمن علينا، ولتدعمنا، ولترفع روحنا المعنوية.

وتحدثتُ معها بدون قيود.. وركنتُ إليها.. ولحسن الحظ أو لسوء الحظ لا أدري فلقد شعرتُ أنها قد بادلتني نفس الشعور.. وتحدثتُ معها في شأني كثيراً، وعندما حل الصباح، وارتفع أذان الفجر معلناً انقشاع ظلمة الليل البهيم، إذا بهذه الظلمة تسكب في روحي سكباً.. فلقد أخبرني رئيس العلاقات العامة بالموقع أن والدتي في عكا في حاجةٍ ماسةٍ إلى وجودي.

ولقد استعانت بجل شباب الحي للوصول إليّ منذ أيامٍ قليلةٍ، ولأن لا أحد يعلم وجهتي، فلم ينجحوا في الوصول إليّ.. وتركتُ الموقع، وركضتُ عائداً إلى عكا، ووجدتُ الناس بالشارع ينظرون إليّ نظرات حزن وشفقةٍ.. وساءني تصرفهم ذاك، وحاولتُ الحديث مع بعضهم، ووجدتهم يترددون في الحديث إليّ.. وبعضهم يقول لي:

-عظم الله أجرك، وأخرجك من محنتك سالماً غانماً.

ولم أفهم ما الذي يحدث، وركضت إلى بيتنا، ووجدتُ والدتي جالسة تبكي وحدها في منتصف ردهة منزلنا المتواضع.. ونظرتُ إليها طويلاً، وأمليتُ عيناي منها، وهي لم تلحظ وجودي فلقد ضعف بصرها في الأيام الأخيرة.

وأخيراً، ارتميتُ في أحضانها وما إن تأكدت من وجودي حتى ظلت تقبلني، وتشمني وتربت على ظهري، ثم ألقت لومها اللطيف عليّ؛ لأنني انضممتُ إلى فرق الفدائيين دون أن تعلم ثم قالت:

-لقد استكثرت على أمك أن تفرح بولدها المجاهد.

فدهشتُ لمعرفتها ذلك، وسألتها مِن أين علمتِ الخبر، فبكت ولم تنطق، وازداد نحيبها، وكاد قلبي أن ينفطر فقمتُ من بين يديها، أبحث عن أختي ليلى في كل الغرف، ولم أجدها حتى قالت لي أمي:

-لا تتعب نفسك بالبحث فلن تجدها.

ولم أعد أفهم، وتساءلتُ:

-ماذا هناك؟.. ولم ترد.

أمسكتُ ذراعها، وهززتها بعنفٍ قائلاً:

-أرجوكِ تكلمي.. ما الذي حل بها؟.. ولم يستطع عقلي أن يواصل التفكير.. إلى أي مكان ذهبت؟ فلقد انقطعت علاقتنا بكل أقاربنا، ومعظم جيراننا بسبب الكلام المنتشر عنها منذ مدة ليست بالقصيرة.

وارتديتُ سترتي مرة أخرى، واتجهتُ إلى الباب مغادراً البيت؛ لأذهب إلى جيراننا، وأسأل عنها..ولاحظت أمي أنني عزمتُ على المغادرة.

فتكلمت من بين دموعها قائلةً:

-لا تسأل أحداً.. إنها في أحد سجون الاحتلال.

وحل عليّ الخبر كالصاعقة.. ولم أفهم، لمَ حدث ذلك؟.. ولم تطل حيرتي، فلقد سمعتُ صوت بوق عربة، ووقع أقدامٍ تقترب ثم طرقات عنيفة متواصلة على الباب، وأصابتني رجفة، وفتح الباب دون أن أفتحه جراء طرقه العنيف، واندفع من الباب بعض جنود إسرائيل يحملون مدافعهم..

ودفع أحدهم فوهة مدفعه في صدري قائلاً:

-أنت المدعو " عبدالرحمن ".

فقلتُ:

-نعم.

فصاح في الجنود الآخرين:

-فتشوا البيت.

وبدت أمي في ردهة المنزل تحاول جاهدة بنظرها الضعيف أن ترى ما يحدث، وقد بدا عليها جزعٌ ممزوجٌ بكرهٍ وهتفت:

-ماذا تريدون منا؟.. ألا يكفي ما فعلتموه.

فصاح بها أحدهم، وهو يتجول في الردهةِ قائلاً بكل برودٍ:

-سنأخذه هو الآخر.

وتساءلت أمي في شيءٍ من الصراخ:

-لماذا؟

ورد عليها الرجل بعصبيةٍ:

-ليفعل ما نريد منه أن يفعله.. فإن استجاب سنرحمه.

وهتفت أمي في ثقةٍ:

-الرحمة من الله.. أنت لست الرب لترحم!

وكنتُ حينها أقفُ مبهوتاً، أراقب كل ما يحدث وكأنه شيءٌ لا يخصني ، وفهمتُ من الحديث أن أختي قد انتقلت إلى سجونهم.

وكان الجنود قد أنهوا تفتيشهم، وبدا البيت وكأن زلزالٌ ألمّ به فقلب كل ما فيه رأساً على عقب، وقلتُ بهدوءٍ:

-ماذا تريدون مني أن أفعل؟

وقادني رئيسهم إلى غرفةٍ جانبيةٍ.. وراح يروي لي كل تفاصيل المهمة التي أريد مني أن أؤديها.. واستحقرتُ جلستي الهادئة؛ لأسمع منه تلك الكلمات الحقيرة.. ودون أن يكمل ترجلتُ واقفاً؛ وقلتُ في كلماتٍ مقتضبة:

-الزيارة انتهت.. لملم جنودك؛ وعد من حيث جئت.

-هل تعلن رفضك للمهمة سريعاً هكذا؟

-نعم.

-ولكننا لم نتفاهم.

-نتفاهمُ على ماذا؟.. على أن أصبح جاسوساً أو خائناً لكم.

-إنك معنا ستصبح أفضل حالاً.. وسنعيد لك أختك.. ومعها آلافٌ من الأموال حتى تستطيع أن تزوجها.. ووسنفتح لك مشروعاً خاصا بك..

وأردف بسخريةٍ:

-حتى لا يُقال عنك نذيرُ شؤمٍ.. بالإضافة لكوننا سنجعلك رئيساً على هذا الحي بدلاً من صبي في ورشةٍ أو عامل في حانوت بقال.. أهذا أفضل أم بقاءك في المعسكر هذا الذي لا يضمن لك حتى قوت يومك؟

-قوت يومي أضمنه؛ لأن الله هو الذي يأتيني به ليس أنت ولا المعسكر.

قلتُ مسبقاً:

-تفضل اخرج.. ودع أختي في سجونكم فهي ليست أفضل من مثيلاتها اللاتي تضج بهن معتقلاتكم.

-ألا تشفق على أختك؟

-شفقتي على وطني أكثر.. إنها الحرب، ويُفرض على كل منا أن يؤدي تضحية معينة.. لقد حان دورها في التضحية.

-عموماً.. فكر في الأمر وسنعود إليك ثانية في المساء؛ لنتناقش معك مرة أخرى.

قلتُ في ضيق:

-الأمر غير قابل للمناقشة.. تفضل ارحل ولا تعد.

فنهض الرجل، وقد كست وجهه علامات التجهم قائلاً:

-لقد حدثتك بالحسنى لكنك أبيتَ إلا القوة، وشئت أم أبيت تجهز لزيارتنا القادمة.

وقبيل المغرب لم يحل المساء وحده، بل حلت علينا دباباتهم وجنودهم ولعنتهم أيضاً.. وكُسر الباب وامتلأت البيوت والشوارع بهم، وجاء الرجل الذي تحدث معي في الصباح موجهاً مدفعه إلى صدري وقال في حقدٍ:

-غادروا المنزل.

فقلتُ:

-إلى أين؟

-إلى الخلاء، على أهل الحي أن يغادروه الآن.

وانطلقت الرصاصات.. واحدة من هنا وأخرى من هناك.. وعلت الأصوات.. وكاد أن يصم أذني صريخ النساء، وسمعتُ بكاء الأطفال، وشعرت أنهم قد بدأوا الحرب، وساورني إحساسٌ أن ذنب كل هؤلاء يقع على ظهري.. وإنهم إن قتلوا فأرواحهم ستعلق في عنقي.. ماذا يضير إن فعلت لهم ما يريدون، وحافظتُ على أرواح هؤلاء التي هي أعظم عند الله من هدم الكعبة.

ونجح الشيطان في السيطرة على نفسي الضعيفة، ولكنني حاولتُ أن أدحره وأن أعود إلى إيماني مرة أخرى.. وقلتُ:

-هي موتة واحدة فلتكن في سبيل الله.

ونظرتُ إلى أمي، فوجدتها تخرج متعسرة من المنزل، وأحدهم يسير وراءها موجهاً مدفعه إلى ظهرها.. وسارت بضع خطواتٍ في بطءٍ وتؤدة يستعجلها الأحمق الذي وراءها.. وحاولت أن تسرع، فسقطت على الأرض كذلك سقط قلبي من مكانه، وبكيتُ وانحنيتُ عليها ممسكاً بيدها ومحاولاً مساعدتها على الوقوف مرة أخرى، فجذبني أحد الجنود بقوةٍ، فصرت معه وتركتها خلفي تحاول أن تتوكأ على ركبتها للنهوض مرة أخرى.

وشعرتُ بالعجز والضعف والمهانة، وتذكرتُ قول الناس أنني نذير شؤم، فحتى المعسكر لم أنجح أن أؤدي واجبي فيه بعد أن فشلتُ في كل عمل حاولتُ النجاح فيه.

ولم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وقد سيقت الحشود إلى أرضٍ خلاءٍ توجد بآخر حيينا.. ومرت الساعات بطيئة.. والدقائق كأنها أيام.. وكاد برد الليل أن يفتك بمعظمنا.

وقبيل الفجر، سمعنا دوي شديد ثم توالت الانفجارات، وعلت النيران من كل بيوت الحي.. وبدأ بعض الجنود في الاتجاه إلى المكان الذي أجلس فيه بين الحشود.. وأمسكوا بي فدفعوني أمام كل الجموع وصاح أحدهم:

-أمركم كلكم في يد هذا الشاب.. وهذا أول إنذار له إن شاء فعل ما طلبناه منه، سنعيدكم إلى بيوتكم؛ لتبنوها من جديد.. وإن رفض ما طلب منه دفناكم هنا.

ونظرتُ إليهم، ورأيتُ ملامحهم المنكسرة، وعيونهم المترقبة.. هذه سيدة تضم وليدها وتبكي.. وهذه فتاة تحتضن صورة خطيبها المعتقل بعد أن انتقتها من المنزل تاركة وراءها كل شيءٍ.. وهذا طفل يرقد محتمياً بحضن أبيه.. وهذا شيخ قد شابت لحيته، وابيضت عيناه من الحزن على ..وهذا شابٌ قويٌ لكنه رفع يديه مستسلماً في ذلةٍ وانكسار.. وهذه أمي زوت ما بين عينيها محاولة أن تنظر إلي.

وشعرتُ أنني مسئولٌ عن أرواح هؤلاء.. وبدأتُ أوازن بين قتل المئات، وبين قتل واحدةٍ فقط _ألا وهي الضيفة التي حدثتك عنها ليلة مجيئك_ ولم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل؟

ومن بعيدٍ نظرتُ إلى أمي مرة أخرى، فوجدتها امرأة عجوز لا تقدر على إعانة نفسها، ولمحتها تفترش الأرض في ثباتٍ ممزوج بقلة حيلة.. وقد كست ملامحها أكوام من الأسى.. ونبض قلبي حباً لها.

ورفعت المدافع مرة أخرى إلى صدور الجميع، وزاد بكاء الأطفال وعويل النساء.. وأشفقتُ عليهم من هذا المشهد المروع.. ونطق لساني دون أن أدري:

-لقد وافقتُ على كل ما طلبتموه، لكن أعيدوا هؤلاء إلى منازلهم ثم أتبعتُ بحسرةٍ:

-أو إلى أنقاضهم.. وأخرجوا أختي من السجن.

وأنزلت المدافع، وتحرك الناس عائدين إلى الحي.. وركضتُ حيث أمي محاولاً جعلها تتوكأ عليّ فسحبت ذراعها من بين يدي في عنفٍ، وقالت بدموع تسيل على خدها:

-سوّد الله وجهك.. كل النساء هنا يطلق عليهن أم الشهيد_ وأشارت إلى النساء بجانبها_ إلا أنا يطلق عليّ أم الخائن.. من الآن لا أمّ لك.

ومضت تجر أقدامها، وتعثرت في بعض طوب الأرض، وسقطت مرة أخرى.. وبكيتُ.

وفي اليوم التالي، فعلتُ ما طلبوه مني، هاتفتُ تلك السيدة، وأخبرتها أنني بحاجةٍ ماسةٍ للحديث معها، لإخبرها شيئاً مهماً حتى تترك غرفتها، وتأتي إليّ بمفردها، فيقوم اليهود باختطافها على حين غرةٍ من الحراس الذين من المفترض أنهم قد وصلوا إليها.

وفعلت ذلك وأتت مهرولة إليّ؛ لتلبي لي طلبي الغادر، وقبل أن تصل إليّ، حاولت إنقاذ أحد الجرحى فأمسكوا بها قبل أن تفعل.. وكنتُ حينها أشاهد كل هذا، وسالت دمعة كبيرة من عينيه.

-مَن هذه؟.. ولمَ لم تعتقلها قوات الاحتلال بلا كل هذه العراقيل، إنهم لا يتورعون عن اقتحام بيوت الناس في أي وقتٍ أو التهديد بهدم الفنادق للقبض على بعض نزلائها؟

-لأنها ليست فلسطينية.. ولقد عقدوا مع بلدها الاتفاقيات والمعاهدات.. ويريدون اعتقالها بشكلٍ غير رسمي حتى لا تثور ضدهم أفراد المجتمع الدولي.

-مَن هذه.. وما جنسيتها؟

-إنها السيدة " حياة حمدي ".

وبتر عبارته فجأة صوت طرقاتٍ على الباب، ودخل القائد " ياسر الصاوي " حاملاً على وجهه ابتسامة عذبة، وهتف في راحةٍ:

-يبدو أن الضابط " جهاد " سينجح في كل المهام المكلف بها.. لقد نجح في الحديث معك بعدما فشلتُ أنا، ونظر إلى جهاد قائلاً:

-هنيئاً لك أيها الفارس الجديد.

ولم ترد جهاد، لقد شرد ذهنها بعيداً متسائلاً:

-مَن " حياة حمدي " هذه؟.. لقد سمعت هذا الاسم مراراً لدرجة أنها تألفه كما تألف اسمها.

وحاولت قدر استطاعتها تذكر صاحبة الاسم لكن ذاكرتها لم تسعفها، ولم تستطع أن تسأل "عبدالرحمن " ثانية في وجود القائد..وطلبت الإذن بالرحيل.. وعادت إلى غرفتها، واستلقت على فراشها، وبذهنها تدور حرب طاحنة؛ لتذكر من حياة حمدي هذه.. ترى مَن تكون؟!!!

****